العلم من مشكلة دين إلى مشكلة إلحاد

د. خميس بن عاشور

جامعة باتنة – الجزائر

منذ أن دخل الفكر الإنساني بزعم اوجيست كونت في مرحلة الوضعية بدأت مشكلة تعارض العلم مع الدين فقد وجدنا شياطين الفكر الغربي وفلسفته قد وضعوا للناس مسلمة هي: " أن العلم والدين ضدان لا يلتقيان. فإما أن نأخذ بتلابيب الدين ونتمسك به فنبقى في تخلف دائم. وإما أن نترك الدين لكي نرقى في سلم المجد والرقي المادي والتقني لنصل إلى درجة من الرفاهية تمكننا من تلبية رغباتنا وشهواتنا إلى أبعد الحدود. ولكن النتيجة والثمرة التي وعد بها هؤلاء الشياطين تخلفت بل كانت وبالا وخسرانا. ففي غياب من الدين تسبب العلم والاستغلال المتوحش للتكنولوجيا في تلويث الطبيعة وصار الإنسان في بعض المناطق من كوكب الأرض لا يجد الهواء النقي لكي يتنفسه. وفي غياب من الدين ظهر الظلم في أبشع صوره متمثلا في استعمار شعب بغرض نهب ثرواته. وبعيدا عن توجيهات الدين صارت المرأة مفتولة العضلات كالرجل وفقد الإنسان بالتالي إنسانيته وهو أغلى ما يمتلكه. وليس غريبا إذا بعد هذه الكارثة أن يتوجه الإنسان بتساؤلات عن قيمة عن هذا الوجود الذي طغت عليه المادة والفكر المادي. وعن الغاية التي يمكن أن يصل إليها بعد هذا البعد عن قضايا الإنسان الأساسية. وبعبارة إسلامية: البعد عن الفطرة التي فطر الناس عليها وبعد هذه الصدمة أدرك الإنسان المعاصر أن الدين هو الدواء الوحيد الذي لا مناص من استعماله لعلاج هذه الأمراض التي تفتك بالروح والجسد معا ".

وقد تكون مشكلة العلم مع الدين حقيقية فيما يتعلق بعقائد الأديان المحرفة وأساطير الكتاب المقدس المزعوم. ومع تطورات العلم نفسه في مجال الاكتشافات ثم التطبيقات (التكنولوجية) أصبح من المؤكد الآن فيما يتعلق بالدين الإسلامي على وجه الخصوص أن العلم صار في مشكلة مع الإلحاد وليس مع الإيمان وصار الإلحاد فاقدا لأية قاعدة علمية يتوكأ عليها. يقول الفيزيائي والفلكي الإنجليزي أرثور ستانلي أرينجتون: "إن الفيزياء الحديثة تقودنا بالضرورة إلى الله ولا تبعدنا عنه ولم يكن أي مخترع للإلحاد عالما طبيعيا بل كانوا جميعا فلاسفة أنصاف معتدلين جدا[1]".

ويقول الانجليزي أرنيست روثر فورد (1871م-1936م) الحائز على جائزة نوبل سنة 1901م : " ... وأيضا العالم التربه الذي كشف بعضا من جوانب الوجود لا ينبغي أن يكون مرتابا في الله. انه لتفسير خاطئ في الأوساط المتخصصة : إن العالم الذي يعرف عن الوجود أكثر من غيره يتوجب عليه أن يكون بلا رب. العكس هو الصحيح تماما "[2].

ويقول الفيزيائي الامريكي أرثور هـ كومبتون (1892م-1962م) الحائز على جائزة نوبل سنة 1927م : " ... بعيدا عن هذا جدا ان تكون في نزاع مع الدين فقد تحول العلم إلى حليف للدين . فمن خلال فهم أفضل للطبيعة نتعرف بشكل أفضل أيضا إلى الله وإلى الدور الذي يجب أن نلعبه في مسرحية الكون "[3].

لقد أصيب علماء الاتحاد السوفيتي سابقا بخيبة أمل كبيرة عندما أعلن عن صحة نظرية الذرة الابتدائية أو الانفجار العظيم (HOT BIG BANG) بالأدلة الرصدية التي أفسدت نظرية الملاحدة في أزلية الكون وقدمه. لقد تساءل علماء الطبيعة في هذا العصر عن سر دلت الساعم الموجود في الكون وفي محاولاتهم للإجابة عن هذه الاستفسالات طرحوا أربعة تفاسير مختلفة:

الأول: مبدأ الصدفة ولكنهم حكموا على هذا المبدأ بانه غير علمي ولا يقدم أسبابا لذلك بالإضافة إلى أنه غير قابل للتجريب.

الثاني: فرضية تعدد الأكوان. والمقصود بها إما أن الكون ينقسم في كل لحظة إلى أكوان متعددة تتحقق فيها كل حالة ممكنة بما فيها إمكانية الحياة وتطورها وإما أن كوننا مغلق وبالتالي فهو دوري أي يتسع ثم ينقلص ثم ينفجر من جديد وهكذا إلى أن تتوفر في إحدى الحالات (الدورات) شروط فيزيائية لظهور الحياة وتطورها. وهذه الفرضية مردودة لأنها غير قابلة للتجريب.

الثالث: قانون أو مبدأ جوهري سيكشف عنه مستقبلا . وهذا في الحقيقة ليس تفسيرا ولكنه تأجيل للتفسير وهو أمنية فقط.

الرابع: تصميم من طرف خالق. وهو تفسير مقبول علميا لأنه يتلاءم مع ما نشاهده من دقة المخلوقات. زد على ذلك فإنه يعطي معنى للكون والحياة [4].

وفي العصر الحديث وأمام تطور العلوم ولا سيما علم الكون (الكوسمولوجيا) فقد أصبحت نظرية بداية الكون وأنه وجد بعد أن لم يكن هي النظرية السائدة اليوم عند جمهور

العلماء (الكوسمولوجيين) حيث تأكد ذلك بالأدلة الرصدية . والقصة بدأت مع قس بلجيكي هو جورج لوماتر[5] الذي تنبأ بوجود الإشعاع الكوني الذي هو من بقايا الانفجار العظيم ثم جاء مهاجر روسي إلى أمريكا هو جورج غاموف (1904م -1968م)[6] فطور نظرية لوماتر و أكد على وجود خلفية إشعاعية عن الانفجار العظيم وقد اكتشف هذا الإشعاع من غير قصد بعد عشرين سنة وذلك على يدي عالمين أمريكيين هما (أرنو بنزياس - روبرت ولسن)[7] . وقد علم القس لوماتر بهذا الاكتشاف وهو على فراش الموت فكان ذلك أحسن مكافأة له[8] .

وهكذا أثبت العلم الحديث أن هذا الكون الضخم المتناسق في صنعته مخلوق من لدن خالق حكيم عليم أوجده بعد أن لم يكن. حيث صار الآن من المسلمات في الدوائر العلمية في العالم بأسره أن الكون لم يكن ثم كان وأن خالقا قديرا أوجده من العدم. ووجد الملاحدة أنفسهم في ورطة منهجية خطيرة ولم تعد كثيرا من فلسفاتهم ذات جدوى بعد أن رجع الإنسان إلى شيء من الصواب إثر مغامرة فتكت بإنسانيته وفطرته. ولا يتشكك عاقل اليوم في تلك الصحوة الدينية العالمية فقد صار الوثني متمسكا بوثنيته واليهودي بيهوديته والمسيحي بمسيحيته مع ما في كل هذا التمسك من سيطرة الخرافة والأسطورة المنافية للعلم ومنهجه . فهذا الياباني يعتقد في امبراطوره حفيدا من سلالات الآلهة. وهؤلاء اليهود يعتقدون جازمين أن كروموزومات خلاياهم أفضل من خلايا غيرهم من بني آدم. وهؤلاء النصارى يؤمنون بأن الله ثالث ثلاثة ومع كل هذه الخرافات الدينية الوثنية نجدهم يتعصبون لأديانهم لا لشيء إلا لأنها تلبي لهم رغبة ذاتية لا يقوون على ردها.

وأما المسلمون فعلى خلاف الأمم الأخرى يجدون أنفسهم في راحة أكبر كلما تقدم العلم وتطورت مكتشفاته أكثر فأكثر لا لشيء إلا لأن الإسلام هو الدين الإلهي الوحيد الذي بقي محفوظا بحفظ الله العليم الحكيم له. فكان القرآن الذي هو كلام الله يتسع دائما بمعانيه متحديا الإنسان في طغيانه العلمي. قال تعالى: « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (فصلت: 53).

فالإيمان في الإسلام هو العلم فكما أن قضايا العلم سيما التجريبي يقينية فكذلك الإيمان هو حقائق صادقة مطابقة للواقع إذ أن قضاياه مأخوذة مباشرة من الوحي الثابت الذي أنزله الله العالم بما كان وبما سيكون. أنزله الحكيم الخبير الخالق الواحد الأحد فنحن بإيماننا بذلك

نعلم أنه لا إله إلا الله أي أننا نؤمن ونصدق بذلك من دون أدنى شك أو ريب وكثيرا ما يأتي العلم في القرآن مرادفا للإيمان . من مثل قوله تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ (الشورى –18)، وقوله: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾(المنافقون – 8)، وقوله: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾(البقرة –223)، وقوله: ﴿ وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (الحج – 54)، وقوله: ﴿وقال الذين أتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾(الروم – 56)، وقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾(المجادلة –11) ففي كل هذه الآيات وغيرها كثيرا يمكننا أن نفهم بسهولة ترادف معاني العلم والإيمان مع التمييز بين وضعية العموم والخصوص أي أن كل مؤمن عالم وليس كل عالم مؤمنا فقد يضل الله الانسان فيكون جاحدا مع استيقانه القلبي .

وأما مبحث العلم الالهي فهو قضية ذات أهمية كبرى في العقيدة الإسلامية وكثير من المعضلات الفلسفية غضت الطرف عن نصوص الوحي فوقعت في متاهات واستغرقت في آبار لا قيعان لها ولو أنها يممت وجهها ذات مرة لألفت في جرابها خزانا كبير من العبث والتبذير الفكري مثلما وقعت فيه قديما القدرية بشقيها (المثبتون والنفاة) ومثلما يقع فيه اليوم الحداثيون الذين يتعاملون مع نصوص الوحي باعتباره نصا أدبيا خاضعا لحيثيات الزمان والمكان وكأنهم لا يصدقون بأن ذلك وحي أنزله العليم الحكيم الذي خلق الإنسان ويعلم ما كان يصلحه قديما وما سيصلحه مستقبلا والله ولي التوفيق.

الهوامش:

---

[1]– العقيدة والمعرفة ، زغريد هونكه ، ص 242 .

[2]– المرجع نفسه ، ص 243 .

[3]– المرجع نفسه ، ص 243 .

[4]– قصة الكون ، د. جمال ميموني و د. نضال قسوم ، دار المعرفة الجزائر .

[5]– جورج لو ماتر (1894م –1966م) فيزيائي فلكي ورياضي بلجيكي من رواد الكوسمولوجيا . كان من الأوائل الذين أعطوا تفسيرا لكيفية بداية الكون من خلال نظريته التي سماها الذرة الابتدائية التي

أطلق عليها هكذا " الانفجار العظيم " . أنظر ـ petit le Robert. Dictionnaire universel des noms propres ..Alain Rey.P 1198.Paris.1995.

[6]– قصة الكون . ص 192.

[7]– الأمريكان أرنو بنزياس (1933م)، روبرت ولسن (1936م) مكتشفا الإشعاع الحراري على عمق ثلاثة كيلومترات في السماء وهذا ما دعم النظرية الكوسمولوجية التي قال بها جورج لوماتر. أنظر ـ Memo Larousse. . P 904. Librairie larousse.Paris.1990

[8]– قصة الكون . ص 192 وما بعدها .